قراءة فلسفية لرسائل إخوان الصفا ونتائجها التاريخية

د. جيوم دفو

دكتوراه في الفلسفة الإسلامية – جامعة السوربون (فرنسا)

وعضو بمعهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنيكان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كنت قد أعلنت أن مداخلتي ستكون تحت عنوان :"لماذا لم يفهم رسائل إخوان الصفا قارئوها ؟ نقد القراءات السابقة واقتراح قراءة فلسفية"، لكني سأركز الآن على قراءتي الفلسفية لرسائل إخوان الصفا ونتائجها التاريخية.

بدأتُ هذه القراءة سنة ألفين وتسعٍ وبها أتممت رسالة الدكتوراه بالسوربون تحت عنوان: "رسائل إخوان الصفا، فلسفة شمولية. إثبات تأليف الكتاب وتفسير نظامه الفلسفي" والتي توصلت فيها إلى اكتشاف هوية مؤلف رسائل إخوان الصفا. لكن هذا لم يحصل إلا بفضل القراءة الفلسفية للرسائل. وعليه فسأبين هنا كيف ستُمكِّنُ القراءة الفلسفية من الوصول إلى الإطار التاريخي لكتابة الرسائل .

كيف نقرأ رسائل إخوان الصفا فلسفيًا؟

تكلمنا في النص الافتتاحي عن شروط القراءة الفلسفية، التي تحتاج إلى ترددٍ مُسْتَفْهِم، كما تحتاج إلى بطء في المطالعة لفهم المعاني الكامنة وراء الكلمة، كما تحتاج أيضًا إلى السعي وراء البرهان خطوة خطوة لإدراكه.

لم تُقرأ رسائل إخوان الصفا قبلا قراءة فلسفية، بل قُرأت أحيانًا قراءات علمية تهدف إلى أخذ معلومات عن الطبيعة من النص، وبالتالي فهي قراءة جزئية تركز على رسالة من رسائل (المعادن أو النبات أو السحر... إلخ)، كما قُرِأت قراءات تاريخية تبحث في النص عن إشارات لإطار التأليف، ووُجدت قراءات إيديولوجيِّة ترى في النص معنًى سابقص وإشاراتٍ مذهبيّة، كما وُجدت قراءاتٌ باطنيةٌ تُعْطِي للكلام معنًى غيرُ معناه المباشر.

لكنه لم توجد قراءة فلسفية تركز على تِبيان إشكالية النص وفرضيته الأساسية، والمفاهيم التي يستعملها، والمنهج الذي يقوم عليه برهانه.

إشكالية رسائل إخوان الصفا:

إن الإشكالية الأساسية التي تُؤسَّسُ عليها رسائل إخوان الصفا تُعبِّر عنها الرسالة الثانية والثلاثون كالتالي: "كيف يتم سريان الكثرة من الوحدة المحضة؟"، على المستوى الأنطولوجي فهي إشكالية تنوع الموجودات اللا نهائي وغير المحدود، حتى إذا كان مصدر الموجودات كلها واحدًا وهو الباري. وعلى المستوى المعرفي هي إشكالية الاختلافات بين المناهج العلمية (أي الاختلاف بين النقل والعقل، وداخل العلوم الفلسفية بين المنهج الرياضي، والمنهج المنطقي، ومنهج العلوم الطبيعية). وهذه المناهج المختلفة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تُنْتِج مذاهب تُناقِض بعضها بعضًا كالتناقض بين العقيدة الإسلامية، والعقيدة المجوسية، أو المسيحية، أو كالتناقض بين نظرية قِدَم العالم عند الطبيعيين، ونظرية خلقه عند الرياضيين، فكيف يمكن أن تكون مجالات المعرفة المختلفة متناقضةً وكل واحدةٍ منها لا تملك إلّا جزءًا من الحقيقة؟ وعلى المستوى السياسي، هي إشكالية العداوة الطائفية: حيث يستخدم الإنسانُ أيَّ تمييزٍ سواءٌ أكان تمييزًا اقتصاديًا بين الفقراء والأغنياء، أو تمييزًا وطنيًا بين الشعوب المختلفة، أو تمييزًا بين الملل الدينية أو بين المذاهب داخل الدين الواحد، في تبرير رغبته بالغلبة على الجميع وباحتكاره للحقيقة وللسلطة، فكيف يمكن أن يحارب البشر أنفسهم إذا كان "الإنسان الواحد لا يقدر أن يعيش وحده إلا عيشاً نَكْدًا"؟

حل الإشكالية:

لا تحل رسائل إخوان الصفا إشكالية العلاقة بين الوحدة والكثرة كما يحلها أفلاطون أو المذهب السنّي، بانتخاب واحدٍ من الكل، للدفاع عنه والرد على المتناقض معه، لكنها تحلها بالصعود من الوِحْدة إلى الشمول الذي هو وحدة الكَثْرَة. فهنا عقيدة إخوان الصفا حيث يقولون:

« وبالجملة ينبغي لإخواننا، أيدهم الله تعالى،ألاَّ يعادوا علماً من العلوم، أو يهجروا كتاباً من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم جميعها، وذلك أنه هو النظر في جميع الموجودات بأسرها الحسية والعقلية، ومن أولها إلى آخرها، ظاهرها وباطنها، جليها وخفيها، بعين الحقيقة من حيث هي كلها من مبدأ واحد، وعلة واحدة، وعالم واحد، ونفس واحدة، محيطة جواهرها المختلفة، وأجناسها المتباينة، وأنواعها المفننة، وجزئياتها المتغايرة ».

المفهوم الأساسي:

إن المفهوم الأساسي الذي يعبر عن هذه الإشكالية يُسَمَّى "إخوان الصفا". لم يَقرأ هذا الاسم قُراءُ الرسائل قراءة فلسفيةً، ولم يَـرَوه على أنه "شخصية مفهومية"، بمعنى "جيل دلوز" للعبارة، بما يعني أنها البطل الذي يشخّص فلسفةً ما، كسقراط بالنسبة لفلسفة أفلاطون، أو زرادشت لفلسفة "نيتشه"، بل قُرأت الرسائل كأنها مجرد اسم مستعار يُخفي به المؤلفُ هويتَه. لكن الرسالة الثانية والخمسين تمنع هذه التفسير تمامًا حيث تقول:

"إذا بلغوا إلى معالي العلوم وشرائف الصنائع، ذوي غنى عن الحاجة إلى من سواهم في جميع ما يحتاجون إليه من أمر معيشة الدنيا. فإذا وصلوا إلى هذه المرتبة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحصلوا هذه المنزلة، صح لنا أن نسميهم بإخوان الصفاء. واعلم يا أخي أن حقيقة هذا الاسم هي الخاصة الموجودة في المستحقين له بالحقيقة لا على طريق المجاز".

ليس إخوان الصفا لَقَبًا كـ"دكتور" أو "باشمهندس" نأخذه بشهادة، لكنه مَفْهومٌ له صفات خاصة به. ويَصف هذا المفهوم الناسَ الذين حصلوا على درجة من الحكمة. يمكن أن نعرِّفَ إخوان الصفا بأنهم الذين طهروا أنفسهم من الشهوات برياضة العلوم الفلسفية، وحصلوا بفضل هذا على أن يكونوا نفسًا واحدةً في أجساد مختلفة وأصبحوا قادرين على الانفصال عن الجسد والصعود إلى العالم الروحاني.

تحل الشخصية المفهومية لـ"إخوان الصفا" الإشكاليةَ بتأليف جماعة من العلماء ذوي التخصصات المختلفة يجتمعون ويكمّلون بعضهم بعضًا كي يصلوا إلى الحق الذي يفتح الطريق لنجاة النفس.

المنهج:

يمكن أن نقارب بين مشروع إخوان الصفا الشمولي وفلسفة فريدريك هيجل و"موسوعته للعلوم الفلسفية"؛ فكلاهما نظامٌ كاملٌ للعلوم الفلسفية. لكن منهج رسائل إخوان الصفا يختلف عن منهج هيجل الجدلي. تُطلق الرسائل على مذهبها اسم المذهب الفيثاغورسي كما تصف منهجها بالمنهج الرياضي. ويمكن أن نرى هذا في الرسالة الثالثة والثلاثين حيث تقول: "فأما الفيثاغوريون فأعطوا كل ذي حق حقه، حتى قالوا: إن الموجودات بحسب طبيعة العدد، يعنون أن الأشياء الموجودة منها ما هو اثنان اثنان، ومنها ما هو ثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، وخمسة خمسة، وهكذا بالغاً ما بلغ".

ويمكن أن نستشهد أيضًا بالرسالة الجامعة فيما يخص تطبيق المنهج الرياضي على الإلهيات:

حيث تقول "إن معرفة التوحيد هو العلم الحق والقول الصدق، وإن علم العدد هو لسان ينطق بالتوحيد والتنزيه، وينفي التعطيل والتشبيه".

مراحل البرهان:

فيجب أن نقرأ الرسائل الاثنتين والخمسين كترتيب الموجودات، والمذاهب، والطوائف بفضل منطق المتتالية الحسابية (**1,2,3**,...إلخ). فعلى المستوى الأنطولوجي، تقول الرسائل: إن "طبيعة الموجودات بحسب طبيعة العدد". فمثلًا نقرأ في الرسالة الأولى حول موضوع الفيض الأول :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"نسبة الباري- جل ثناؤه- من الموجودات، كنسبة الواحد من العدد، ونسبة العقل منها، كنسبة الاثنين من العدد، ونسبة النفس من الموجودات، كنسبة الثلاثة من العدد، ونسبة الهيولى الأولى كنسبة الأربعة.

وعلى المستوى المعرفي يُعطي الفيثاغورسيون " كلَّ ذي حق حقه"، بما يعني أنهم يرتّبون نظام تعلُّم العلوم من علم العدد إلى السحر على حسب عدد المبادئ التي يتأسس كلُّ علمٍ عليها، وعلى المستوى السياسي يرتّبون الطوائف الدينية كترتيب الأعداد على حسب عدد المبادئ التي تُؤمنُ بها، ويبدأ الترتيب بأهل التوحيد، ثم المجوس، ثم المسيحيين، ثم الطبيعيين الأرسطيين، ...إلخ.

استدلال الإطار التاريخي لرسائل إخوان الصفا:

من هذا الأساس، يمكن أن نستدل على الإطار التاريخي لرسائل إخوان الصفا. ورغم كون الإشكالية الفلسفية إشكالية كونية، إلا أنها تظهر بقوة في زمانٍ ما ولقومٍ ما. فمتى طُرحت هذه الإشكالية إذن؟ ما الأزمة الكبيرة التي جعلت الفلاسفة يدرسون مسألة الوِحدة والكَثرة؟ وما المدرسة الفلسفية التي اقتربت من مذهب الفيثاغورسيين؟

من الواضح أن الإطار التاريخي المؤسَّس على شهادة أبي حيانٍ التوحيدي، وهو بَصْرِيٌّ، في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، ليس مناسبًا لهذا البناء الفلسفي. فعلى المستوى المعرفي، إشكالية تنوع المناهج العلمية حُلت كما يدل عليه كتب إحصاء العلوم التي ترتبها بطريقة شبه ثابتة (مثلًا، بالانفصال بين علوم الدين والعلوم الفلسفية، وبالتقسيم بين الرياضيات، والمنطقيات، والطبيعيات، والإلهيات). وعلى المستوى السياسي، وجود ثلاث خِلافات إسلامية (العبّاسية في بغداد، والفاطمية في القاهرة، والأموية في الأندلس) حال دون العودة إلى وحدة الأمة الإسلامية. وأما المنهج الفلسفي أصبح منهجًا مُؤسَّسًا على المنطق كما هو عند الفارابي، وليس على الرياضيات كما نراه في رسائل إخوان الصفا.

إن المنهج الذي يصف الفلسفة العربية في آخر القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي) هو هذا المنهج الرياضي بالتحديد، حين كانت الفلسفة مؤسسة على الرياضيات كما عند ثابت بن قرة الذي قال إن "الرياضيات غذاء النفس"، و عند حنين بن إسحاق الذي وصف في كتابه "أدب الفلاسفة" تربية اليونانيين التي تبدأ بعلم اللغة ثم بالحساب، ثم بالهندسة، ثم تتوالى علومٌ عشرة في سنينٍ عشر. ونجد الترتيب نفسه عند الكندي في رسالته "في كمية كتب أرسطو" في تقديمه كتب أرسطو بكتب الرياضيات، وخاصةً كتاب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"المدخل في علم العدد" لـــ نيقوماخس الجاراسيني، والذي هو كتابٌ يُؤسِّسُ عليـــه إخـــوان الصفا نظريتهم في علم العدد.

إن إشكالية الوحدة والكثرة طُرحت بشكلٍ حادٍّ في العصر نفسه عند الفلاسفة، حيـــث ازدادت مجالات المعرفة بفضل حركة ترجمة كتب الحكماء القدماء ودراستها في مدرســـة الكندي. وبالتالي فقد ظهرت مشكلة ترتيب العلوم الفلسفية وعلاقتها بالثقافة العربية. وعلى المستوى السياسي، سببَّ غيابُ الإمامِ والدخولُ في عصر سَتْـــرِه أزمةً سياســـيةً كبيـــرةً، فأختفت احتمالية الرئاسة الدينية للأمة، فاحتاجت وكالة دينية أخرى.

"إخوان الصفا" ومدرسة الكندي:

لا يمكن فهم الشخصية المفهومية لـــ"إخوان الصفا" إلا في إطار أهل الفلـــسفة فـــي بغداد في آخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). حين كانت التنمية الفلسفية منتظمةً حول شخصية الكندي الذي أعطى للفلسفة دورًا عامًا باستعمالها للدفاع عن الإســـلام فـــي المناظرات الدينية، وباستخدامها لإثبات عظمة الحضارة العربية، وقد جمع الكندي حولـــه علماءً من طوائف مختلفة فيما سماه المؤرخون "مدرسة الكندي".

أولا: إن الفلسفة بالنسبة للكندي علمُ الكلامِ الحقيقيّ. فقد كتبَ "كتاب في الإلهيـــات" ضـــد المجوس و"رسالة في الرد على النصارى" مُعطِيًا فيهما لكل مذهب عـــددًا؛ ليتهمـــه بالتكفير أو الإشراك وليدافع عن التوحيد الإسلامي. وكذا فعلت رسائل إخوان الصفا التي تعتبرُ علمَ العدد "لغةَ التوحيد".

ثانيًا: يدعو الكندي إلى أخذ العلم دون حدود، حيث قال في بداية الفلسفة الأولى إنه "ينبغي لنا أن لا نستحي من استحسان الحق، واقتناء الحق من أين أتـــى، وإن أتـــى مـــن الأجناس القاصية عنا، والأمم المباينة، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحـــق. وليس يبخس الحق، ولا يصغر بقائله ولا بالآتي به. ولا أحد بخس الحق؛ بل كـــان يشرفه الحق".

يمكن أن نقارن هذا النص بمفهوم "الإنسان المطرق" لرسائل إخوان الـــصفا، حـــين يقولون :

"فقام عند ذلك العالم الخبير، الفاضل الذكي، المستبصر الفارسي النـــسبة، العربـــي الدين، الحنفي المذهب، العراقي الآداب، العبراني المخبر، المـــسيحي المـــنهج، الـــشامي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النّسك، اليوناني العلوم، الهندي البصيرة، الصوفي السيرة، الملكي الأخلاق، الربّاني الرأي، الإلهي المعارف، الصمداني".

هذا العالم الخبير يجمع صفات كل الأمم وأنماط كل الطوائف. تغذيت نفسه على علم " الأجناس القاصية، والأمم المباينة" كما قال الكندي. فهو يُقرِّ بالأصول المتنوعة للمعرفة.

ثالثًا: بنى الكندي في مدرسته علاقات متينة مع علماء زمنه. لقد توزعت مدرسة الكندي في أنحاء البلاد بعد مصادرة مكتبته على يد المتوكل على الله، ونجده يبعث برسائل كثيرةٍ إلى أصدقاء مختلفين له يقيمون بعيدًا، وهو في رسائله يخاطبهم قائلا "الأخ المحمود"، وهكذا حال إخوان الصفا حين يبعثون برسائلهم إلى إخوانٍ "حيث كانوا في البلدان"، فهم منتشرون في أقاليم الخلافة.

رابعًا: لم يبحث الكندي في الثقافات الأخرى عن العلوم الفلسفية فقط، بل بحث عن علوم الدين أيضًا، فهو يُعدُّ مصدرًا أساسيًّا للمعلومات عن دين "صابئة حرّان"، ذلك الدين الذي يُصبح عبادةً فلسفيَّةً في الرسائل، وتصف ذلك الرسالة الخمسون والثانية والخمسون.

استدلال هوية مؤلف الرسائل:

إذا تأكدنا مما سبق أن مدرسة الكندي هي الإطار التاريخي الملائم لفلسفة رسائل إخوان الصفا، فيمكن أن نستدل من هذا على هوية مؤلف هذه الرسائل.

أولاً: فيما يخص استعمال المنهج الفيثاغورسي في المناظرات الدينية، فقد بعث الكندي بتلميذه أحمد بن الطيب ليجادل الأسقف النسطوري إسرائيل الكسكري..

ثانيًا: يقول ابن النديم إن شهادة الكندي على صابئة حران وصلت له بخط أحمد بن الطيب. ونعرف من رحلة أحمد بن الطيب السرخسي مع الخليفة المعتضد بالله أنهم زاروا مدينة حران. وستصبح مدينة حران بعد ذلك نموذجًا لمفهوم "المدينة الفاضلة" في رسائل إخوان الصفا. ونعرف أيضًا أن العالم الصابئي ثابت بن قرة كان زميلاً للسرخسي وصديقًا له. ولذا تأخذ رسائل إخوان الصفا نظريته في العناية الإلهية، وتستشهد الرسالة الثانية والخمسون بنصٍّ لابن قِرَّةٍ يتحدث فيه عن الشكل الهندسي لقرص العسل (سداسي الضّلع).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثالثًا: كان السرخسي أستاذ المعتضد قبل أن يصبح نديمه. وبنى تربيته الفلسفية للمعتضد على علم العدد، وبدأها بكتاب المدخل في علم العدد.

رابعًا: كان الكندي مشهورًا بركاكة أسلوبه حتى إن الجاحظ كتب "رسالة في فرط جهل الكندي" ليتهمه فيها بذلك. وكان أسلوب السرخسي على العكس تمامًا رقيقًا وجميلًا مستوحيًا إيَّاهُ من الجاحظ. وهكذا تَتْبَعُ رسائل إخوان الصفا عمل الكندي في كل تفاصيله، واضعين عمله في أسلوبٍ أكثر جمالية.

نتائج:

يمكن أن نستنتج من قراءتنا الفلسفية فرضيةً تاريخيةً حاسمة، وهي أن تاريخ تأليف رسائل إخوان الصفا كان في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. وأن أحمد بن الطيب السرخسي، تلميذ الكندي ووارثه العلمي، هو المرشح الأفضل ليكون مؤلف رسائل إخوان الصفا.

كان يجب أن نَأكِّد فرضيتنا بالعودة إلى أجزاءٍ من نصوص السرخسي التي نَجَت من مرور الزمان ووصلت إلينا، وهذا ما قُمتُ به في رسالتي للدكتوراه. ربما لا يتسع الوقت الآن لشرح المخطوطات التي اعتمدت عليها، ولكن تلك المخطوطات قد أكّدت الفرضية وحددتها حتى وصلتُ إلى هذه النتيجة :

إن رسائل إخوان الصفا نظامٌ فلسفيٌّ كامل، كتبه أحمد بن الطيب السرخسي تلميذ الكندي حول سنة مائتين وثمانيين هجريًّا (أي ثمانمئة وأربعة وثمانيين ميلاديًّا) مؤسّسًا أفكاره على رياضيات نيقوماخس الجراسيني، ومستعينًا بالمؤلفات العلمية لأستاذه الكندي، ومُكمِّلًا عمله هذا باهتمامٍ سياسي وَرَثه عن الجاحظ مُعاصِر الكندي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com